الدكتور صروف والتجديد في اللغة العربية

١ مدخل البحث

بلغت اللغة العربية في الخمسين سنة الاخيرة مبلغاً ، لا يقاربهُ في تقدمها ورقيها الا عصر العباسيين ، ذلك العهد الذي نشطت فيه لغتنا المبينة حتى ادهشت جميع العلماء في جميع الديار وفي جميع الاحقاب

وكل من وقف على هذه البرهة الاخيرة من تاريخ لساننا يعجب من وصوله الى درجة لم يكن يحلم بها آباؤنا قبل نصف قرن ، فالى من يُنسب هذا الرقي ؟

اننا لا ننكر ان هناك عوامل توافرت فتضافرت على دفع لساننا الشريف الى هذا التقدم ، فمنها الرجال ، ومنها المدارس ، ومنها الديار ، ومنها المطبوعات (من جرائد وكتب ومجلات) ونحن لا نريد ان نبخس كل فريق حظه من التكاتف والتحالف للبلوغ الى هذه النتيجة العظمى ، نتيجة الحياة السعيدة ، بل نختصر الكلام ونقول : ان اعظم من سعى الى انهاض لغتنا الضادية من حضيض الخمول هو محمد علي ، جد الاسرة الملكية ، اذن مصر هي ام النهضة الحديثة ، ورأس الديار العربية اللسان في السير بهذا الانبعاث ، انبعاث العرب وآدابهم وحياتهم القومية الجديدة ، ثم يأتي ارباب المدارس ومنشؤها ، ولاسيما اصحاب مدرستي الاميركيين واليسوعيين في بيروت ، والمدارس المصرية الاميرية والاجنبية في ديار وادي النيل

٢ المقتطف او صروف محي العربية ومنشّطها

لقد تغلغلت هذه الحقيقة في قلب التاريخ ، حتى اصبح نزعها منهُ بمثابة نزع حياته منهُ ، او القضاء على حركته النابضة فيه ، وهو امر مستحيل ، وكنا قد أشرنا الى ذلك في ختام مقال لنا ادرج في « الكتاب الذهبي » ص ١٣٩ وهذا حرفهُ :

« . . . لان العرب اذا نهضوا اليوم يدعون بحقوقهم ، وينتسبون الى نوابغهم ، ويفاخرون بحضارتهم ، وعمرانهم ومدنيتهم القديمة ، ويباجلون ابناء الغرب في اخلاقهم الفطرية ، والمكتسبة العالية ، ويباهون أهل العصر بصفاتهم الشرقية ، ويباردون بشعرائهم ، وادبائهم ، وكتّابهم في معالجة المواضيع الحديثة ، والمعاني العصرية ، فاكثر ذلك راجع الى المقتطف

« فهو هو الذي اشرق شمس الحقائق على بلادنا العربية ، هو هو الذي بدأ فنادى بنزع القيود القديمة السقيمة التي تمنع العربي من الجري وراء الغربي الحدّاء ساعياً طليقاً ، هو هو من اول المنادين بازالة طريقة الكتابة القديمة العقيمة ، اقبالاً على الموضوع المنشود اقبال هاجم او متهجّم ، لا اقبال متملق أو ماسح

« ولذا ترى كتابنا اليوم غير كتابنا بالامس ، وشعراءنا في هذا القرن غير شعرائنا الموتى الهامدين في العصور السابقة ، وبهذا القدر كفاية للمقدر . » اه

ولم يكن لنا متسع في ذلك الموقف لتطيل الكلام فيما كان يختلج في صدرنا ، ونحن في موقف « العرس » وهو غير موقف « التبت » . اما اليوم — وقد وقفنا الوقفة الاولى في الامس — فيحق لنا ان نقف الوقفة الثانية ، فنقول :

الدكتور يعقوب صروف اغنى لغتنا المبينة الفاظاً ، وتعابير او افكاراً ، وتصانيف لم تكن معهودة في سابق العهد وكل ذلك بقدر واف لا يُنكر ، ونحن نورد اثبات كل حقيقة قائمة بنفسها على حدةٍ ، لكي لا نرمى بالمبالغة أو الغلو

٣ الفاظ المقتطف

لما أُنشىء المقتطف ، كان الكتاب يرون الكلم الاعجمية بصور عديدة ، شنيعة ، متنوعة ، حتى انك ما كنت تتمكن من ان تهتدي الى حقيقتها مهما بالغت في التنقيب عن اصلها ام صورتها الاصلية ، وان دفعتهم الحاجة الى ذكرها ثانية ، نسوا ما كانوا قد ذكروه واوردوها بصورة ثانية غير الصورة الاولى ، وهكذا [illegible] والمسخ كلما زادوها ذكراً [illegible] جداً يضحك الثكلى ، ثم عدلت عن متابعة البحث ، لما رأيت من [illegible] وفرة تلك الكلم وصورها الشنيعة الممقوتة بحيث كرهت الامر أشد الكراهية

على ان مجرد القول لا يكفي في هذا الموضوع ، بل لا بد من ايراد شيء ولو كان شاهداً واحداً ليكون للقارىء مقياساً او معياراً لبحثه او تحقيقه ، ولهذا اذكر لك لفظة واحدة في نهاية البساطة ادعاماً لرأيي

هذه الكلمة الافرنجية Gazette التي نسميها اليوم صحيفة او جريدة ، فاول ما جاء ذكرها في المنشورات كان بصورة غازّتة (بتشديد التاء التي تلي الزاي) ثم خففت فقالوا غازتة (كجالسة) ثم غازيتة (بزيادة الياء قبل التاء) ، وغزّتة

وغزّتة وغزّينة ، ثم قلبوا النون جيماً في جميع هذه الروايات الست وجعلها اهل العراق كافاً فارسية فصارت الروايات ثماني عشرة : ثم ختموا تاءها المثناة فجعلوها طاء فتضاعفت الروايات وبلغت ستاً وثلاثين ! ولعل هناك غيرها لم نطلع عليها ، او لم نعثر عليها ، اولم نقرأها او لم نسمعها . فانت ترى من هذا كله ، ومن ذاك اتساع أو التساهل ما يشوّه محاسن لغتنا ويقبح الاشتغال بها ، ويزيدها الفاظاً بروايات عجمية غريبة ونحن في مندوحة عنها اذ غايتنا تخفيف اعباء اللغة والاحتفاظ بما يفيدنا ونبذ كل ما يضرنا باي وجه كان

ما ذكرناهُ من اختلاف الروايات هو لكلمة واحدة يكاد الناس جميعهم يعرفونها الى عهدنا هذا ، فما القول في الالفاظ الاعجمية الطويلة الاعجمة ، الغريبة الحروف ، الشنيعة الصور ، الموحشة الاوزان ، المخالفة لاوضاع يعرب ؟ — ذلك يطول الخوض في عبابه ، لان الاقدمين منا جروا في هذا المضمار عنانه ، فصحّفت الكلمة الواحدة تصحيفات لم تمرّ في خلد بشر

أما المقتطف فلهُ هذه المزية العظمى التي خدم بها لغتنا وخدمنا نحن المتصلين اليها خدمةً لا تقدر وهي : انهُ اذا وضع كلمة غريبة لاول مرة ، ذكرها ثم اذا أعاد ذكرها مراراً مهما كان عددها بالمئات ، تابع كتابتها على وجهها الاول ، وقد بقي مواظباً على خطته المذكورة حتى آخر جزء برز في حياته . وهناك عمل آخر وهو انهُ اذا ذكر لفظة غريبة لاول مرة شرحها شرحاً وافياً على اصول العلم الحديث بغنينا عن مطالعة مثلهِ في سائر الكتب الافرنجية ، لان علاّمتنا لم يكن يتوخى في كل ما يكتبهُ الاّ اصدق الآراء وخير الروايات واقبلها للعقل السليم الخالي من الغرض ، ولا يفرغ اللفظة الاّ في قالب عربي او يكاد ، بحيث يسهل حفظها على ابن عدنان ، حتى ليظنها عربية النجار

ولو جمع اللغوي العصري جميع ما ورد من هذه الحروف الغريبة الوضع والمعنى التي ذكرها المقتطف (وان قلت الدكتور يعقوب صروف فانك لا تخطىء لان للفظين المختلفين معنى واحداً) لقام بين يديك مصنف بديع يصغر في جنبهِ كل ما كتب عندنا ، بل كل ما كتب عند واحد من ابناء العرب ، مهما كان متبحراً في العلم والعرفان

ولا بد انك تطالبني بشاهد على حدّ ما فعلتُ في صدر هذا الفصل فاقول : اني لا اذكر لك من هذا القبيل الاّ كلة واحدة هي فصفور ، فانهُ ذكرها منذ السنة الاولى

بهذه الصورة وحافظ عليها الى آخر يوم من حياته ، إنْ تكلماً كما تحدثُ ينطق بها مراراً وان كتابةً ، كما تشاهدها مدونة في آخر ما خطتهُ يدهُ ذاكراً هذه الكلمة ، وكذلك قل عن شرحها . اما الغير فذكروها على مناحٍ متعددة ، منها : فسفور ، وفوسفور ، وفوصفور ، وفصفر ، وفسفر الى غيرها ، لكن اليوم غلبت صورة فصفور (كعصفور العربية الوزن) سائر الصور ، وكتب لها البقاء ، مع ان البستاني قيّدها في محيط محيطه بالوجه الذي ذكرهُ في مادة (ف س ف ر) اي الفسفور . فكان على الناس ان يتبعوا البستاني لانهُ لغويٌّ ، وماكان عليهم ان يهتدوا بنور صرُّوف لانهُ عالم فيلسوف لم يتخصص للغة كما تخصص البستاني لها ، لكن تبع الكل « صرُّوفاً » ولعم ما فعلوا . وازيد على ذلك فاقول : لو كان النقيد اتخذ رواية غير رواية «الفصفور» التي اشتهرت ، لكانت هي المتبعة دون غيرها ، الاَّ ان حسن ذوق صاحب المقتطف هو الذي جذب اليهِ تخير احسن الروايات فجذب وراءهُ ارباب الاذواق السليمة والاقلام المحققة ، فنعم التعريب ونعم المتبع والمتبع

وكنت اود ان اذكر هنا الفاظاً عجمة من هذا القالب ، لكن ذلك كلهُ لا يزيد الموضوع شيئاً طريفاً

ومما يفتخر بهِ كل عربي غيور على لغتهِ انهُ وضع الفاظاً عربية لا تحصى في جميع فروع العرفان ، وهذه الفروع متوافرة في المقتطف اذ عالجت كل علم وكل فن وكل صناعة ولم تهمل مبحثاً من المباحث ، كما انه احيا الفاظاً كانت مدفونة في زوايا المهارق فجلاها .

اما الالفاظ التي هي من وضع المقتطف فكثيرة لا يخلو منها مجلد ، وانا اذكر هنا بعض ما شاع منها مع ما يقابلها في الفرنسية تفادياً من الشرح واقتصاداً في الورق فمن ذلك

الاحافير Fossiles — الرقص البدلوي Pavane او Padovana وقد قال النقيد في اصل هذا الحرف (المقتطف المجلد ٦٦ : صفحة ١) نوع من الرقص ، يقال إنهُ منسوب الى پادُوَى ، بلد في ايطاليا . فان كان ذلك صحيحاً فتكون الكلمة العربية معرَّبة ، ولكننا نظن انها اصلية ، نسبة الى البدو او البادية اه . قلنا : والعوام من العراقيين ، ولا سيما النصارى منهم ينسبون الى البدو : بدَّاوي (بتشديد الدال يليها الف) فلا يبعد في ان الافرنج سمعوا العوام ينطقون بها فاخذوها عنهم والافرنج لا ينقلون الكلم الاَّ عن العوام ، حتى انهم يفعلون ذلك في اعلام المدن ، ولا يعتبرون

ما ورد منها في الكتب الفصيحة . حجر الفتيلة Asbeste . الصحافة Presse . علم النفس Psychologie . علم الوجدان وبالانكليزية Consciousness . المثال الاعلى Idéal . الكَيْنِت ، كلمة عامية تفيد بعوض البرداء لانهُ لا يطنّ اذا طار بل يبقى ساكتاً ، فرضي بان تدخل في اللغة الفصيحة لحاجتنا اليها ، وهو الذي يسميه عوام فلسطين ولاسيما في انحاء جبل الكرمل « الهمهس » . واهل العراق « ابوفلس » وبلسان الام انوفيلس Anopheles . الاستهواء Suggestion . مناجاة الارواح Spiritisme . تنازع البقاء وهي بالفرنسية La lutte pour la vie وبالانكليزية Struggle for life الا ان العربية افصح مما وضع لها في اللغتين واوضح وهي من ابدع ما جاء في لساننا ، ولا جرم انه يكتب لها الخلود الى ابد الدهر . ولو لم يضع صروف الا هذه الكلمة لكفاهُ وقوفاً على اسرار اللغات الدخيلة وخفايا لساننا المبين المتين . مذهب النشوء والارتقاء Transformisme . مذهب التطور Evolutionisme . الداروينية Darwinisme . التنويم Mesmérisme . المغناطيسية Magnétisme . التمثية : « تحويل الغذاء حتى يصير من جنس العضو الذي يدخلهُ » (المقتطف ٦٦ : ٥٢) Assimilation . النفق Tunnel . الوسيط Médium . الظهارة (اللاية) Drap de lit القطيفة (البطانية) Couverture de laine . علم الاحداث الجوية Météoreolog . التدويد : « ادخال سلك من الحديد ، او عود دقيق في الثقب حيث الدود ، وقتل الدود به » (المقتطف ٦٦ : ١٠٣) . اللاسلكي Télégraphie sans fil . علم الاحياء Biologie

ولا بد من الوقوف الى حدّ في ايراد هذه الالفاظ فقف هنا وانا لم اذكر منها الا ما ورد في بعض صفحات من تلك المجلة الجليلة القدر ، وانتقل الآن الى سرد بعض الكلم التي اخرجها من مدفنها اللغوي وذكرها في مقتطفه ولم يكن احد قد سبقهُ الى انتخاذها . من ذلك : كثير من اسماء صور الكواكب وعدة الفاظ فلكية . ومنها الليم Citron وقال عنهُ هو الليمون الصغير المعروف في مصر باسم بزهر (المقتطف ٦٦ : ٥٣) زيت كبد الحوت (زيت السمك) (٦٦ : ٥٤) الصكلة (الناموسية) Moustiquaire . الربع Quandrant . السدس Sextant . الشهوات وهي التي عرفها بعض القدماء او المحدثين باسم العواطف Passions مع ان العواطف هي Inclinations والشواعر هي المعروفة عند الغربيين

باسم Sentiments (راجع المقتطف ٦٦ : ١٠٤) . خصَّ كلة المستشفى بما يسميه الفرنسيون Hôpital وخص بيمارستان او مارستان ما يعرف عندهم بلفظ Maison d'aliénés . الكباح على ما في المقتطف (٦٦ : ١٢١) « مرض اكثر ما يصيب الفقراء وصغار الحيوانات فيختل نموّ العظام حينما يبتدئ الولد يمشي ، او حينما يبتدئ ظهور اسنانه ، فتنتفخ اطرافها ويتوقف نموّها وتلتوي الاضلاع الى غير ذلك من الاعراض المميزة لهذا المرض » Rachitisme . سغالة (بلاد في افريقية) Mozumbique . المدرَّج Amphithéatre . الكحول Alcool هذه الكلمة دافع عنها فقيدنا مراراً عديدة وتمسك بهذه الصورة دون غيرها من جميع الروايات التي ابرزها العصريون لابناء لغتنا . فقد قال احدهم يجب علينا ان نقول « الغول » وقال آخرون بل لنقل « الكؤول » ، وفريق « الالكحول » وجماعة « الكحل » ، اما المقتطف فقد تشبث « بالكحول » ولم يخرج عنها . واتفق لهُ ان كتب عن هذا الوجه مراراً وآخر مرة تكلم عنها ، كان في سنة ١٩٢٥ في ٦٦ : ٢٠٩ جواباً على مقترح وهذا نصهُ :

« ليس من السهل الغاء كلة كثر استعمالها ، ووضع كلة اخرى بدلاً منها . ولو كانت الثانية (ماثار المركبة من ماء ونار وكان قد عرضها المقترح على المقتطف بدلاً من الكحول) اصح من الاولى واخف لفظاً . ومن الاقوال المأثورة : الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور . ثم ان لكلمة الكحول مزيةً على غيرها : انها شائعة في كل اللغات الاوربية التي يقرأ ابناؤنا كتبها العلمية والصناعية . ومصلحتنا تقضي علينا ان نسير في الطريق الاقرب والاسهل لاقتباس العلوم والصنائع من الاوربيين ، والاَّ بقينا منحطين عنهم ، وقضي علينا . ومن ذلك اقتباسنا كلماتهم كما فعلوا هم فانهم اخذوا دون العرب في الفلك والكيمياء ، فاقتبسوا منهم كثيراً من الكلمات اليونانية » انتهى

على ان صورة الكلمة « الكحول » التي وردت عند السلف هي « الكُحْل » ، لكن اراد الدكتور الفقيد ان يخصص « الكحل » بما لطف ودق من الاثمد علاجاً للعين ، واما الكحول ، وزان دخول ، فخصهُ بما لطف من روح الخمر وهكذا سهَّل على القراء تمييز لفظةٍ عن لفظةٍ خوف اللبس (راجع ما كتبهُ احد الادباء في مجلة المشرق اليسوعية ٢ : ٣٠٧ في الحاشية ففيها مجزأة للباحث) اما ان الكحل على اللغة او السائل فما لا شك فيهِ جاء في لسان العرب في مادة (ب ر م) : البرَم : الكحل

المذاب . واما اعتراض البعض ان الكحول بالواو لم يرد في كلامهم فهذا لا يمنع الاصطلاح . هذه كلمة البخل قلما وردت بصورة بخول ايضاً والمراد بها المفرد (راجع تاج العروس في مادة ب خ ل) ، فاذا كانت كلمة البخل وليس فيها معنى ثان جمعت بصورة بخول ، فلماذا لا يجوز لنا ان نقول « كحول » ونحن نريد لها معنى يختلف عن معنى الصيغة الاولى ؟ ذلك عمل واجب القيام به تيسيراً لتوجيه الافكار الى المعنى المطلوب وهو امر لا مناص منهُ ، بل لا بدَّ منهُ

ما قلناهُ الى الآن كاف لاظهار فضل صروف في احياء الالفاظ الميتة او المدفونة او المنسية او ما تريد أن تسميها وفي خلق أو وضع الفاظ تقوم بحاجات عصرنا . ولو أردنا الامتداد بنا النفس الى ما عملاً جزءا من اجزاء المقتطف لذلك اجتزأنا بما تقدم لنأتي الآن على ذكر التعابير او الافكار او الخواطر التي أتى بها المقتطف وقلب بها العربية ظهراً لبطن

٤ تجديد أفكار كتابنا

كان الكاتب عندنا قبل خمسين سنة ، اذا كتب في موضوع ، صدَّر كلامهُ بمقدمة طويلة عريضة ، وختمهُ بمؤخرة أطول من ذنب الطاووس . في المقدمة يقول معتذراً انهُ ليس من فرسان ذلك الميدان ، وانهُ يقرّ بجهله وضعفه وعجزه وهو مع ذلك يقدم على معالجة الموضوع متكلاً على عونهِ تعالى حامداً اياهُ . الى غير هذه الاقوال التي ألفها الجميع وأصبحت حصناً حصيناً ، يبنى حول كل بحث من أي نوع كان ، حتى انهُ كان يستحيل على الباحث ان يجاوزهُ الى ما وراءهُ او الى ما يحيط بهِ ، وما كان يتصور انهُ يستطيع جدرانهُ المنيعة . وكان نصيب من يخالف هذا التقليد من أشدّ الناس مروقاً من الدين ، وان كان الكاتب لا يتعرض لهُ بكلمة ، لتكن هكذا كانت الافكار يوشر ، وهذا ما يرى فيها أُلّف وصُنّف ونقل الى لغتنا قبل بروز المقتطف . وأما الخاتمة فلا بد من ان تكون « والله أعلم » او « وهو الهادي الى سواء السبيل » أو « وعلى الله الاتكال في المبدأ والمآل » الى امثالها

أما صروفنا فقد ظهر منذ ان قبض على عنان قلمهِ بمظهر خالف كل من تقدمهُ ، كان يهجم على الموضوع هجوم الاسد الضرغام على فريستهِ ولا يتركهُ الا من بعد ان يوفيهُ حقهُ من البحث ، او ارجع وقل : كما يفترس الليث فريستهُ فلا يبقي منها

ولا بدر . اذن لم يكن لمقالات صروف مقدمة ولا مؤخرة ، مختذياً بذلك اسلوب العربيين الاقصر والاوفى بالمقصود ، فكان اسلوبهم مثالاً اعلى لهُ يقتدي بهِ لانهُ يؤدي الى المطلوب بلا عناء ولا لغوب

ومن خصائص اسلوبهِ ايضاً انهُ يتخذ للتعبير عن فكرهِ اسهل الالفاظ واقربها الى الادراك ، وامنها تركيباً ، وأعظمها إمتاعاً لسامعها ، بينما كنت ترى من تقدمهُ يتحذلق فيما يضع ، ويتقعر فيما ينطق بهِ ، ويتبقّر فيما يلتمس لهُ من البحث ، فيتطلب لهُ أعوص الكلم واعصاها على الافهام ، لكي يقال عنهُ انهُ يُحسن العربية ومطّلع على غوامضها وشواردها ، وانهُ غواص في اللغة يهوي الى قعر بحرها ليلتمس لهُ ما يريد من اللآلئ لينظم بها حلى افكارهِ . أما فقيدنا فقد أبان في عدة مواطن من مقتطفهِ ، ولاسيما في المجلدات الاولى منهُ : ان العلم لعلّمهُ من يجهلهُ ، فاذا كان الامر كذلك ، فلا يحسن بنا ان نتخذ لساناً يجهلهُ كلا يجتمع جهلان : جهل العلم وجهل اللسان ، بل يجب ان نكلم الناس ابسط الكلام وأصحهُ لكي لا تجتمع ظلمتان ظلمة فوق ظلمة ، ظلمة العلم وظلمة اللغة . فاذا دخلت حجرة مظلمة واردت ان ترى ما فيها ، اتزيل ظلمتها بسدّ ما فيها من النوافذ والابواب ، ام تفتحها وتأخذ بيدك ضياء لتبدّد بهِ مالا تستطيع النوافذ والابواب ان تلاشيهُ بانوارها ؟ — فالاولى صفة الكتّاب المتحذلقين ، والثانية صفة ماكان يكتبهُ صروف ليعلم الناس ماكانوا يجهلونهُ من المباحث او ليبرز [illegible] عظائم الاسرار وجلائل الحكم

قام عليهِ في بدء الامر عدة كتبة ، واخذوا يسخرون من اسلوبهِ ومن الفاظهِ ومن تعبيراته ، لكن ذلك كله لم يزعزعهُ قيد شعرة ، بل ثابر على خطتهِ هذه ، الى آخر نسمة من حياتهِ . فاضطروا الى ان يعدلوا عن منهجهم ويحتذوا بامامنا ويجاروهُ في كل امر توخاهُ هو ، لعلمهم ان الحق يعلو ولا يعلى عليهِ ، ولان الحق واحد لا يتعدّد ، ولان الناس يتبعون الاوضح من الطرق ، والاسهل عليهم للسعي فيهِ بلا عنت ولا كلفة ، واليوم ترى النشء الغضّ كلهُ جارياً على هذا النحى لا يلوي إلى ذات اليمين ولا إلى ذات الشمال كما لا يلوي وجههُ الى ورائهِ

هذا من جهة الاسلوب وانتقاء الالفاظ والهجوم على الموضوع هجوم ليث ضرغام

على فريسته . بقي هناك التعبيرات الجديدة التي نقلها من لغات الغربيين الى لغتنا . فهذا امر يطول عليَّ ايرادهُ او تبيانهُ او شرحهُ ؛ لانك تحقق ذلك بنفسك ، اذا ما طالعت نقلهُ لكتاب « سر النجاح » في طبعتيه الاولى والثانية . فانك ترى فيه من محدث التعبير ما لا عهد لاجدادنا به . وحينما أقول لك طالع «سرّ النجاح » فليس معناهُ لا تطالع المقتطف ولا سائر كتبهِ ومستخرجاتهِ ومقالاتهِ ؛ فهذه كلها من فكر واحد ومن منتج واحد وان شئت فقل : ان تلك الجداول والانهار كلها من ينبوع واحد هو دماغ المفكر العظيم ؛ وان أبيتَ الاَّ ذكر شواهد على ما اقول ، آخذ الجزء الاول من المجلد الاخير (الحادي والسبعين) وهو جزء يوليو (تموز) من هذه السنة ١٩٢٧ آخر جزء صدر في ايام حياتهِ وفي نظرهِ فاعرض عليك قولهُ من التعابير الغربية النزعة :

« وأحاديث المجالس تدور على جرأتهم واقدامهم » (ص ١) بمعنى تجري : —

وفيها : « والجو بعجُّ بطياراتهم وضجيج محركاتها » فالفكر والتعبير والاسلوب وكل ما فيهِ جديد حديث

وفيها : . . . « يعيدان الى الذهن ما دوَّنهُ التاريخ في طياتهِ عن عصور الارتياد الذهبية » فقولهُ طيات التاريخ . ووصفهُ للعصور بالذهبية ، كل ذلك من وضع ابناء الغرب ، وهو من أحسن التعبير وابينهِ للمطلوب

وفيها : . . . « في اقتحام الاصقاع المتجمدة حول قطبي الارض والانتصار عليها » تراهُ يتكلم عن الاصقاع المتجمدة ، مع ان السلف لم يتكلم عنها ؛ واذا رأيت بعضهم يفصح عنها قال : الاصقاع الجامدة ؛ لانهم لم يقولوا في لغاتهم « تجمد » لكنهُ رأى في « تفعل » ما لم يرهُ في وزن « فعل » اذ وجد في التجمد جمداً على جمد على جمد الى ما لا حدَّ لهُ فقال ما قال فاين هذا من فعل جمد الذي لا يؤدي هذا المعنى . اذاً اراد ان يؤدي المعنى الناشيء من تراكم الجمد بعضهُ على بعض مدة قرون وقرون فقال تجمد ولم يخف من ان يستخف به احد لانهُ حاول تصوير معنى ناشيء من مباحث العلم لم يكن يعرفهُ سلفنا

وفيها : « كان الطيران في مهدهِ » تعبير بديع ، ذكَّرني ، وخفَّف ، كثيراً ، فهل يمكنك ان تصوغ هذا المعنى وتفرغهُ في غير هذا القالب المأخوذ من ابناء الغرب ؟

وفي هذه الصفحة غير هذه التعبيرات وكلها افرنجية القوام، عربية اللباس، يدركها القارئ من غير ان يمعن النظر فيها، بل عند مجرد سماعه اياها. وان حاولت ان تفرغها بقالب غير هذا القالب الذي ابدعهُ لك «محي لغتنا» تحك منك القارىء بل استغرق في الضحك، لا بل ربما استخرط في البكاء.

٥ — اغنى صرُّوف لغتنا وجدَّدها بتصانيفه المتعددة

لو قلت لك ان الدكتور يعقوب صروف هو اكبر كاتب او مؤلف وجد في العربية منذ ان وجدت الى يومنا هذا، لأكبرت الامر وانكرتهُ وقلت عني: هذا رجل بالغ او مُغال في كلامه، ان لم يكن كاذباً فيما يدَّعيه — وان قلت لك ان صرُّوفنا وضع اكثر من ٨٥٠٠ «كتاب»: لقلتَ: هذا الكذب الصريح الذي لا ريب فيه فأنى تأفك؟ — لكن دعنا نتفاهم

«الكتاب» في لغتنا كل ما كُتب صغيراً كان او كبيراً. فالتوراة — وهي ضخمة — «كتاب» — والرسالة التي تكتبها الى صديقك وهي في اسطر او سطور — «كتاب» فكتاب فعال بمعنى مفعول. فالكتاب مكتوب، والفراش مفروش، واللباس ملبوس، اي ان كلاً من هذه الاشياء معدّ لان يكون ما وصف به اي ان الفراش معدٌّ لان يُفرش، واللباس معد لان يلبس، على حدّ قولهم: مأكول ومشروب وملبوس اي ما يؤكل وما يشرب وما يلبس لا انهُ أكل وشرب ولبس فاذا كانت الصحيفة تسمى «كتاباً» (راجع لسان العرب في مادة ك ت ب — ص ١٩٣ س او ما يليه) فما قولك في المقالة والنبذة والرسالة في القلم الذي كل منها «كتاباً»؟ واكثر ما جاء في كلام الاقدمين ان فلاناً صنف العدد الفلاني من التصانيف او من «الكتب» فمناهُ كذا من الرسائل او من النبذ وعندنا من قولهم هذا: «كتاب الخيل وكتاب الشاء وكتاب النخل وكتاب الابل وكتاب السلاح وكتاب الريح الى غيرها فكلها رسائل صغيرة قد تقع في صفحة من المقتطف او في بضع صفحات

وان قلنا ان من المصنفين من كتب مئات وهي ضخمة كالطبري مثلاً والسيوطي والجاحظ الى غيرهم قلنا: لو جمعتم ما صنفوا لما جاء نصف ما ألفهُ صروف. فالمقتطف يقع في سبعين مجلداً ضخماً واذا سمينا كل مقالة «كتاباً» تقدَّم منها لا اقلَّ من ثمانية آلاف وخمسمائة كتاب. فهل من مؤلف كتَّب هذا العدد

ولعلك تقول : ليس كل ما جاء في مجلته هو له ، بل بعضه ، قلنا : وهذا الذي عددناه اذ حسبنا ان له عشر مقالات او عشرة كتب في كل جزء من الاجزاء الاثني عشر عن كل سنة فيكون المجموع ما ذكرناه او دون المجموع الحقيقي . وهو وان لم يكتب بنفسه سائر المقالات فانه كثيراً ما صححها بقلمه وقلما ظهراً لبطن او حرّر عبارتها او زاد عليها او حذف منها او اعاد كتابتها بنفسه من اولها الى آخرها

هذا من جهة ما يتعلق بالمقتطف ، لكن العلامة الاستاذ الاكبر كتب استخرجها من الانكليزية الى العربية وكتب وضعها من غير ترجمة او نقل ، بل صنفها مباشرة ونحن نذكر لك ما وقفنا على اسماء بعضه من معرّب ومؤلف :

الكيمياء (وهو كتاب ضخم في الكيمياء العصرية) من باثولوجية واقرابادينية

علم السموم (التكسكولوجية)

سرّ النجاح . والطبعة الثانية تكاد تكون من وضعه لا من ترجمته

الحرب المقدّسة

الحكمة الالهية ، وكتاب الظواهر الجوية (او الميتورولوجية)

وعرّب مشتركاً مع رصيفه « سير الابطال والعظماء » و« مشاهير العلماء »

وله قصص وروايات بديعة محكمة السبك ، بديعة الوضع ، ادبية المرمى ، جديرة بان يطالعها الذكور والاناث فينتفع بها كل امرىء . وله مقالات عديدة ضافية الذيل في جريدة (المقطم) وله مثلها في (المقتطف) وفي (دائرة المعارف) التي اصدرها المعلم بطرس البستاني ، منها ما ذيلها باسمه ومنها ما لم يذيله او ذيله بحرفي ي . ص .

وله مقالات بديعة في جميع العلوم والفنون والصناعات من ادناها الى ارقاها فكان صدره « معلمة » حية واوعى هذه المعارف كلها « المقتطف » وهو من المجلات العالمية التي لا يستغني عنها ولا يصح ان تخلو منه خزانة عامة او خاصة علمية او صناعية ، رياضية او تعليمية ، لان من المحال ان يكتب كاتب في موضوع الا ويرى في هذا المورد الماء الذي ينقع عطشه

هذه قطرة من بحر والا فالموضوع اوسع من ان يحيط به قلمي الضعيف . ومن اراد التوسع فليطالع صفحات المقتطف او اجزاءه فانه يجد ضالته المنشودة

بغداد فهمي الجابري